

القصص القرآني والبعد الفلسفي الحجاجي

في تفسير الفخر الرازي

الدكتور: رشيد بن يمينة

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

تزخر مدونة التفسير التراثية بمصنفات متميزة، ليس فقط في الجانب الديني الشرعي، ولكن في المجال اللغوي الأدبي أيضا. ولعل في طريقة تعاطي بعض كبار المفسرين القدامى مع القصص القرآني بعض ما يجلي ذلك؛ إذ بقدر ما انكب أولئك على بسط مضامين ذلك القصص وعرض أغراضه الدينية التربوية، بقدر ما اهتموا برصد مواطن أدبيته الإعجازية في تجلياتها النظامية، وتنويعاتها الأسلوبية، في سياق ذلك نستقرئ بعض الإشارات الدالة التي توميء بوعي مكين بطبيعة الفن القصصي وخصوصياته النوعية لدى ثلة من أولئك المفسرين، في وقت لم يكن فيه للخطابات السردية كبير شأن عند أدباء العرب وجمهور القراء.

Résumé : Le blog d'exégèses patrimoines contient des œuvres distinctes, non seulement dans le côté religieux légitime, mais aussi dans le domaine linguistiques, et littéraires. Peut-être qu'il est dans les anciennes études d'interprétation, ce qu'illustrait ces préoccupations. Autant que les chercheurs se sont engagés à étaler le contenu de ces récits et leurs buts religieux et éducatif, ils se sont intéressés à disposer la littéralité miraculeuse du coran, dans sa variante systémique, et ses différentes stylistiques. dans ce cadre on conclut certains signaux qu'indiquent avec conscience la nature du récit, et ses caractéristiques chez certains chercheurs. A une époque où le récit du discours était moins important pour les écrivains, et les lecteurs arabes.

لامشاحة في أن التفسير من أعرق علوم العربية والإسلام، وأوسعها انتشارا، وأقدرها على البقاء والاستمرار ما استمر كتاب الله، لا تخبو أسرارهِ وآياته، ولا تنقضي عجائبهِ إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

القسم القرآني والبعد الفلسفي المجازي في تفسير الفخر الرازي

وقد ارتبطت بواكير التفسير بأحاديث النبي ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين في توضيح ما استشكل فهمه من آي القرآن ومعانيه على عامة المسلمين أو بعضهم؛ ثم صار التفسير مع تطور الحضارة العربية الإسلامية، علما قائما بذاته، لا يرتاد مسالكه إلا ذوو الاختصاص ممن جمعوا بين المعرفة بالقرآن وعلومه، وبين الإلمام بمختلف علوم اللسان العربي من لغة ونحو وبلاغة. وهذا ما يوضحه لنا "الزركشي" من خلال تعريفه علم التفسير بأنه « علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ».⁽¹⁾

وإذا كان معروفا أن التفسير في مراحل نضجه قد اتخذ له اتجاهين رئيسيين⁽²⁾، انخرط عبرهما جل المفسرين: اتجاه يعتمد النقل والرواية، وآخر ينجح إلى التأويل والاجتهاد، أو كما سميا: «التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي»⁽³⁾ فكان من «العلماء من غلب عليه منهج المحدثين فاقصر على ذكر المنقول، ومنهم من غلب عليه منهج العقلين فشرح باجتهاده»⁽⁴⁾، فإن كلا الفريقين حاولا ارتياد مجال الأدبية الإعجازية بالكشف عن مظاهر تجلياتها عبر آي الذكر الحكيم، ولو أن الاتجاه الثاني (المعقول) كان الأقرب إلى ذلك، إذ تسليح رواده بمختلف علوم اللسان العربي - كما يقول ابن خلدون - من معرفة دور اللغة، وصور الإعراب، وألوان البيان في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب.⁽⁵⁾ بل إن الأمر تطور إلى حد ظهور مصنفات ضخمة جمع أصحابها بين تفسير القرآن وبين مختلف العلوم اللغوية، حتى صار من الصعب تصنيفها؛ هل في خانة علم التفسير أم في خانة فقه اللغة أو علوم النحو والبلاغة العربية.

ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ) وكتابا "معاني القرآن" و "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة (ت 276 هـ) إلى جانب مصنفات آخر في إعراب القرآن، و في بيان غريبه. ذلك أن هؤلاء وأمثالهم اتخذوا من تفسير القرآن طريقا إلى كشف الظواهر البلاغية حيناً، واللغوية النحوية حيناً آخر، وصولاً إلى فهم القرآن فهماً صحيحاً وإدراك مراميها، ودفع الشبهات عنه.⁽⁶⁾

وإذا كان هذا الاتجاه يفتقر إلى المسح الشامل لأي القرآن وسوره من بدايتها إلى نهايتها كما هو الشأن عند كبار المفسرين، فإنه بالمقابل شكل حقلا خصبا للبحث في أدبية الإعجاز ووضع حجر الأساس لظهور وتبلور الدرس الإعجازي لاحقا؛ ومن هذا المنطلق يكون رواد هذا الاتجاه « قد ساهموا بذلك في تأصيل الدرس البلاغي من خلال تفسير القرآن الكريم».⁽⁷⁾

خط فخر الدين الرازي (544-606هـ) منهجه التفسيري على مدارج الحكمة، ومسالك الفلسفة، متسلحا بالمعارف اللغوية، والعلوم الكونية، متوخيا دقة المنطق، و بلاغة الحجة، وقوة الإقناع، مع استفادة في العرض والتحليل في بسط المسائل، وتفريع القضايا إلى حد جعل تفسيره أقرب إلى الشمولية الموسوعية منه إلى مجال العلم الدقيق المتخصص. فهو « يمتاز في مؤلفاته بدقة التفكير وحدة المنطق والقدرة على تشعيب المسائل وتفريعها وحصر أقسامها حصرا يحيط بها إحاطة تامة».⁽⁸⁾

يقول الإمام السيوطي في سياق تصنيفه طبقات المفسرين: « وصاحب العلوم العقلية - خصوصا الإمام فخر الدين - قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها وخرج من شيء إلى شيء؛ حتى يقضى الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية».⁽⁹⁾ ولعل هذا ما حدا ببعض العلماء إلى ترديد تلك العبارة الشهيرة في نقد تفسير "مفاتيح الغيب" حين وُصف بأن «فيه كل شيء إلا التفسير».⁽¹⁰⁾ ذلك أن ثقافة الرازي الموسوعية التي اكتسبها بالنهل من مختلف علوم عصره من فلسفة وعلم كلام وطبيعات، بالإضافة إلى تحصيله مختلف العلوم الشرعية واللغوية، مع ما يتمتع به مفسرنا من ملكة عقلية وحس علمي، اجتمع لينعكس كله على اجتهاداته التفسيرية. ثم إن الإمام فخر الدين السني الأشعري- الذي يعمل العقل دون أن يهمل النقل- حين نظر في جهود سابقيه من صنوف المفسرين وعلماء الكلام- خاصة المعتزلة منهم- وجد أن الكثير منهم قد سلكوا طرقا قاصرة في تفسير القرآن الكريم عندما اهتموا بجوانب فيه وأهملوا أخرى، كالتركيز على الجانب النحوي أو البلاغي أو الكلامي المذهبي، مما حجب عنهم الوصول إلى أسرار القرآن الحكيم والربط بينها وبين أسرار الطبيعة والكون والإنسان.

القصص القرآني، والوحد الفلسفي، الحجاجي، في تفسير الفخر الرازي

وعموماً فإنه لا يمكن لأحد «أن ينكر استطرادات الرازي واستنباطاته وكثرة تفريعاته، وأن عقليته المتقدمة وتزاحم الأفكار في رأسه وكثرة تداعياتها، أوقعته في بعض الأشياء التي قد تبعد به عن التفسير»⁽¹¹⁾. لكن ذلك لا يبخس الرجل حقه، ولا يزري بقيمة جهده التفسيري، حتى أن من الباحثين المعاصرين من اعتبر فيوضات الفخر الرازي الموسوعية ميزة لا عيباً، ورد على العبارة السابقة المستهجنة لتفسيره بقوله: «فيه كل شيء مع التفسير... فيه مع التفسير مباحث لغوية وفقهية وكلامية وفلسفية، وإن كانت النزعة الكلامية هي الغالبة عليه في التفسير كما غلبت عليه في التأليف»⁽¹²⁾.

بهذا المنهج العقلي ذي المنحى الفلسفي الحجاجي تعامل الفخر الرازي مع أدبية الإعجاز سواء عبر تفسيره الشهير "مفاتيح الغيب"⁽¹³⁾ أو من خلال كتابه المعروف: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، الذي يقول في مقدمته محمداً أهم مسالك إدراك أدبية الإعجاز: «لما ثبت أن عجز العرب إنما كان عن المزايا التي ظهرت لهم في نظم القرآن والبديع التي راعتهم من مبادئ الآيات ومقاطعها وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وإعلام وتنبيه وتذكير، وجب على العاقل أن يبحث عن تلك المزايا والبديع: ما هي، وكم هي، وكيف هي؟ ولا يمكن ذلك إلا بالبحث عن حقيقة المجاز والحقيقة والاستعارة والتشبيه والتمثيل وحقيقة النظم والتقديم والتأخير والإيجاز والحذف والفصل والوصل وسائر وجوه المحاسن المعتبرة في النظم والنثر»⁽¹⁴⁾.

وإذا كانت الروح الفلسفية مهيمنة على تحليلات الرازي في مجال تفسيره آيات الإعجاز العلمي والإعجاز الغيبي في القرآن، فإن تلك الروح لا تفتأ حاضرة بارزة حتى في تعامله مع صور وألوان الإعجاز البياني في تجلياتها النظمية والبلاغية خاصة؛ ذلك أن «بحوث الرازي البلاغية - في نهاية الإيجاز - تعد نقلاً للبلاغة العربية عامة وعلم البيان خاصة، من ساحة الأدب والذوق والجمال إلى ميدان الفلسفة والمنطق، حيث كانت عقلية الرجل عقلية فلسفية منطقية»⁽¹⁴⁾.

لهذا نلغي الرازي حين يأتي إلى المسائل البلاغية في آيات الذكر الحكيم، غير مهتم بالوقوف مطولاً عند معالمها الجمالية الذوقية، بقدر ما يمعن في إبراز أدق معانيها وأخص دلالاتها بواسطة العرض المفصل، والشرح المستفيض، مع الاسترسال في رصد الإحكام وتفريعها، «وهكذا شأن

الرازي في إبرازه للإعجاز البياني، يظل يستطرد بطريقة التفريع والتوليد، واستنباط المعاني الدقيقة بالاستدلال العقلي عليها⁽¹⁵⁾.

نرصد مثل هذا التوجه في شرح دلالة "روح القدس" من حيث بعدها المجازي، في قوله تعالى ضمن الآية السابعة والثمانين من سورة البقرة: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، يوضح الرازي بداية أن المقصود بروح القدس يتعلق بأحد ثلاثة على سبيل التشبيه هم: جبريل عليه السلام، والإنجيل، والاسم الأعظم، "أي" الله "جل جلاله؛ ثم يشرح ذلك محملاً ومعللاً

ثم يذهب إلى المفاضلة بين المشبهات المذكورة، من حيث تأرجحها بين الحقيقة و المجاز وصولاً إلى تحديد أقربها و أنسبها إلى مسمى المشبه به (روح القدس)، فيستدرك قائلاً: «إلا أن المشابهة بين مسمى الروح و بين جبريل أتم لوجوه أحدها: أن جبريل عليه السلام مخلوق من هواء نوراني وثانيها: أن هذه التسمية فيه أظهر منها فيما عداه؛ و ثالثها: أن قوله تعالى [وأيّدناه بروح القدس] يعني قويناه، والمراد من هذه التقوية الإعانة، وإسناد الإعانة إلى جبريل عليه السلام حقيقة، وإسنادها إلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز، فكان ذلك أولى، ورابعها: هو أن اختصاص عيسى بجبريل عليهما السلام من أكد وجوه الاختصاص، بحيث لم يكن لأحد من الأنبياء عليهم السلام مثل ذلك؛ لأنه هو الذي بشر مريم بولادتها، وإنما ولد عيسى عليه السلام من نفخة جبريل عليه السلام، وهو الذي رباه في جميع الأحوال، وكان يسير معه حيث سار، وكان معه حين صعد إلى السماء»⁽¹⁶⁾.

ولعلنا نلاحظ هنا كيف يعمد الرازي في خضم ما يسوقه من حجج و براهين تأييداً لوجهة نظره إلى الملمة تفاصيل القصة الواحدة المبثوثة عبر سور وآيات متعددة في القرآن، ليصل إلى إثبات صحة ما وصل إليه من نتائج؛ فتكون تلك التفاصيل بمثابة المقدمات الصحيحة التي تؤدي إلى نتائج صادقة حسب لغة أهل المنطق، لذلك أقر المفسر تعلق مسمى "روح القدس" بجبريل عليه السلام بناء على ملازمة الأخير عيسى عليه السلام، منذ ولادته العجيبة إلى حين رفعه إلى السماء.

القصص القرآني والبعد الفلسفي الحجاجي في تفسير الفخر الرازي

وفي هذا ما يؤشر على وعي الرازي بطبيعة القصة القرآنية في بنيتها الحديثة الشاملة، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند تفاصيلها الجزئية، ومشاهدها المتناثرة هنا وهناك في ثنايا القرآن الكريم.

على هذا المنوال يتعاطى الرازي مع ظاهرة "التكرار" في القصص القرآني، فهو يدرك بحس المفسر الخبير بأسرار الأسلوب القرآني، الملم بأدق تفاصيله أن التكرار خصيصة أسلوبية من أهم معالم الأدبية الإعجازية؛ فهاهو حين يتناول ما جاء من قصة زكرياء عليه السلام في سورة "مريم"⁽¹⁷⁾ يقارن ذلك بكيفية ما ورد من القصة نفسها في سورة "آل عمران" ليصل إلى إثبات تطابق مضمون القصتين على ما بينهما من تباين أسلوب، واختلاف في ترتيب أجزاء نظم الكلام، مما قد يوهم جاهلا بأوجه الإعجاز البياني للقرآن، وبأسرار اللغة العربية، أن هناك تعارضا دلاليا بين شكل أو أشكال ورود القصة الواحدة في موضعين مختلفين أو أكثر على امتداد سور القرآن الكريم، لذلك نلفى مفسرنا يسارع إلى نفي مثل هذا التعارض، أو التناقض الدلالي من خلال تعمقه في تحليل مكونات ملفوظ كل آية في مستوياته المعجمية والتركيبية والبلاغية ليصل إلى تقرير وإثبات أوجه الفائدة الدلالية - من حيث بعدها القصصي هنا- عبر تلك التنويعات الأسلوبية.

والفخر الرازي العالم الخبير بالعلوم الطبيعية و الكونية لا يكتفي بالتفنن في عرض وبسط دلائل قدرة الله العجيبة، و بدائع صنعته في خلقه كلما عرض لآية تشير إلى ذلك؛ بل كثيرا ما يعمد إلى استحضار ثقافته العلمية تلك في تعاطيه مع القصص القرآني أيضا، فينصرف عن المجال السردى ذي الطابع الإخباري التاريخي، ليتوقف مطولا عند المجال السردى في طابعه الوصفى المشهدي، متأملا نظم آية ما، مدققا النظر في مستوياته اللغوية والأسلوبية، متسائلا عن سر نسج وترتيب دواله ومدلولاته وتواليها على هذا الشكل أو ذاك، ليخلص في النهاية إلى تقرير أحكام، و نتائج موضوعية على طريقة العلماء و الفلاسفة.

من ذلك ما نلمسه من تفسير لصيغة دعاء سيدنا زكريا -عليه السلام- في سورة مريم حيث يتوقف الرازي عند هذا المركب الوصفى بشكل خاص: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾⁽¹⁸⁾، ليس لإبراز معالمه الجمالية البلاغية، أو شرح ظاهرة اجتماع الكناية والاستعارة هنا؛ ولكن لتناول جانب آخر لصيقا بثقافة الرازي العلمية ونزعته الحجاجية؛ وذلك أن الأخير يذهب إلى

تعليل سبب اختيار الصورتين المذكورتين تعليلا علميا "بيولوجيا" ليكون علامة دالة على تقدم السن، كما يعتمد إلى تعليل سبب ترتيبهما تعليلا منطقيا حجاجيا بناء على ذلك، حيث تقدمت الأولى (وهن العظم مني) الثانية (اشتعل الرأس شيئا)، يقول الرازي: «... (أما المقام الأول) وهو كونه ضعيفا فأثر الضعف، إما أن يظهر في الباطن أو في الظاهر، والضعف الذي يظهر في الباطن يكون أقوى مما يظهر في الظاهر، فلهذا السبب ابتداء بيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله: (وهن العظم مني) وتقديره هو أن العظام أصلب الأعضاء التي في البدن وجعلت كذلك لمنفعتين: (إحدهما) لأن تكون أساسا وعمدا يعتمد عليها سائر الأعضاء الأخرى إذا كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول؛ (والثانية) أنه احتيج إليها في بعض المواضع لأن تكون جنة يتقوى بها ما سواها من الأعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر، وما كان كذلك فيجب أن يكون صلبا ليكون صبوراً على ملاقة الآفات بعيداً، من القبول لها، إذا ثبت هذا فنقول إذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ما عداها مع رخاوتها أولى، ولأن العظم إذا كان حاملاً لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجبا لتطرقه إلى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء؛ وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس، فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر، وذلك مما يزيد الدعاء توكيدا لما فيه من الارتكان على وجود الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة»⁽¹⁹⁾.

على هذا المنوال يتنقل الرازي بين آي الذكر الحكيم حسب مختلف موضوعاته، بما فيها القصص القرآني، شارحا ومحللا ومسترسلا في بسط المسائل، وتفريع القضايا، واستنباط الدلالات على عادة الفلاسفة وعلماء الكلام، وذلك في نسق متجانس، ونسيج محكم، يقود المفسر عبره النقاش في دقة وإحكام.

وعلى الرغم من أن الرازي قد أخذ الكثير عن سابقه من المفسرين والمتكلمين وأهل اللغة والأدب والبلاغة عامة، وعن عبد القاهر الجرجاني والزمخشري خاصة⁽²⁰⁾، فقد ظلت بصماته الشخصية، وإضافاته المتميزة ماثلة للعيان في تفسيره.

القصص القرآني والبعد الفلسفي المجازي في تفسير الفخر الرازي

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ج2، ص: 152.
- 2- ينظر: ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار الفجر، الجزائر، ط1: 1422 هـ/ 2001 م، ص: 32.
- 3- د. نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط6: 1416 هـ/ 1996 م، ص: 74.
- 4- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8: 1974، ص: 145.
- 5- ينظر: ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس 1984، ص: 348-349.
- 6- ينظر: شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2: 1996 م، صص: 17 إلى 48.
- 7- رابع دوب، البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفجر، القاهرة، ط: 2199، ص: 6.
- 8- مقدمة: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تح: د. نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر بيروت، ط1، 1424 هـ/ 2004 م، ص: 10.
- 9- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص: 213.
- 10- ينظر: أحمد عبد الغفار السيد. التفسير والنص: دار المعرفة الجامعية، ص: 156.
- 11- عيادة بن أيوب الكبيسي، شبهات حول تفسير الرازي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ع 16، 1419 هـ/ 1991 م، ص: 68.
- 12- فتح الله خليف، فخر الدين الرازي، دار بور سعيد للطباعة، مصر، 1986 م، ص: 42، وينظر ص: 55، 56.
- (*) - المعروف أيضا باسم "التفسير الكبير".
- 13- فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص: 29.
- 14- أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، الحانجي، القاهرة، 1990 م، ص: 309.
- 15- المرجع نفسه، ص: 295.
- 16- الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، ج3، ص: 177.
- 17- وذلك في سياق استهلاله تعالى لسورة مريم بقوله: ﴿كَهَمِصَ (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرْيَا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِئُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)﴾.
- 18- مريم، الآية: 4.
- 19- التفسير الكبير، ج21، ص: 181، 182.
- (*) - كثيرا ما ينقل الرازي عن الزمخشري مكنيا إياه بهذه العبارة: "قال صاحب الكشف".